ذو القـرنيـن

فصَلَ ذو القرنين إلى المغرب غازياً فاتحاً، محارباً مجاهداً، لا يصادف في طريقه حَزْناً. إلا سلكه، ولا عالياً إلا ظهرَه، ولا عَدُوًّا إلا كسَر سلاحه، وقصَّ جناحه، لا يُبالي في الجهاد الحرّ ولا القَرّ، ولا السهل ولا الوعر، إذ كان الله قد مكَّن له في أرضه، ورزقه الطاعة والانقياد في جنده، وآتاه من كل شيء يحتاج إليه في توطيده ملكه سَبَباً، ومنحه في القتال حظّاً سعيداً وفتحاً مبيناً.

وما زال في طريقه يسير ويَسري، حتى إذا انتهى إلى عين اختلط ماؤها وطينُها، فتراءى له أنّ الشمسَ تغرب فيها، وتختفي وراءها، وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو، ولا سبيل للجهاد، ولكنه رأى عندها قوماً هاله كفرهم، وكبُر عليه ظلمُهم وطغيانهم، إذ كانوا قد عثوا في الأرض، وأكثروا الفساد، وسفكوا الدماء، استجابةً للشيطان، وجرياً وراء نوازع النفوس، فاستخار الله في أمرهم، وما يصنع بهم، فخيره الله بين سبيلين يختار إحداهما، ويسلك ما يريد منهما: إما أن يذيقَهم القتل ويوقع بهم النكال، جزاء كفرهم وطغيانهم، وإما أن يُمهِلهم ويدعوهم، ولعلَّ منهم مَنْ يهتدي، أو يرتدع ويرعوي. فاختار ذو القرنين الإمهال على القتل، والحسنى على الإثخان[1]، ثم قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾[2].

وأقام فيهم مدّة، ضربَ على يد الظالم، ونصر المظلوم، وأخذ بيد الضعيف، وأقام عمود العدل، ونشر لواء الإصلاح.

ثم بَدَا له أن يَثني عِنان عَزمه إلى الشرق، فسار غازياً مجاهداً، منصوراً موفّقاً،

---

(١) أثخن في العدو: بالغ في قتاله.

(٢) سورة: الكهف، الآية: ٨٧ و٨٨.

حَسنَ الطالع مظفّراً، حتى انتهى في سيره إلى غاية العمران في الأرض. وهناك وجد أقواماً تطلُع الشمسُ عليهم، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم، أو أشجارٌ تُظلهم، ولعلهم كانوا على حال من الفوضى، ونصيب من الجهل... فبسط على بلادهم لواء حُكْمه، وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه، وخلفهم إلى الشمال غازياً مجاهداً، مظفَّراً منصوراً، حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين، يسكنها أقوام لا تكاد تُعرَفُ لغاتهم، أو يفهم في الحديث مرماهم، ولكنهم قد جاوَرُوا يأجوج ومَأجوج، وهم قوم في الأرض مُفسدون، وأوزاع من الخلق ضالون مضلون.

وما إن رأوا ذا القرَنيْن مَلِكاً قوي البأس، شديدَ المِراس، واسع السلطان، كثيرَ الأعوان، حتى فزِعوا إليه أن يقيم سدًّا بينهم وبين جيرانهم، يفصل بلادهم، ويحول دون عُدوانهم، إذ كان يأجوجُ ومأجوجُ قوماً قد رُكِبَ الشرُّ في نفوسهم جِبِلَّةً، وامتزج الفساد بين جوانبهم خِلْقَةً، السيف لا يمكنه أن يَرْدَعهُم، والنصح محال أن ينفَعهم، وشرطوا على أنفسهم نوْلاً يدفعونه إليه، وأموالاً يضعونها بين يديه.

ولكنّ ذا القرنين ـ بما طبعه الله على الخير، وما فطره على الصلاح، وما أعطاه الله من كنوز الأرض وخيراتها ـ أجابهم إلى سؤالهم، وردّ عطاءهم، وقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾[1] ثمَ طلَبَ إليهم أن يُعينوه على ما يفعل، ويساعِدُوه على ما يصنَع، فحشَدُوا له الحديدَ والنحاسَ، والخشب والفحْم، فوضع بين الجبلين قِطَعَ الحديد، وحاطَهَا بالفحم والخشب، ثم أوقد النار، وأفرغ عليه ذائب النحاس، واستوى كلُّ ذلك بين الجبلين سَدًّا مَنيعاً قائماً، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تَظْهَرَه[2] لمَلاَسَته، أو تَنْقُبه لمتانته، وأراح الله منهُمْ شعباً كان يشكُو مِنْ أذاهم، ويألَمُ من عُدْوانهم.

أما ذُو القَرْنين فإنه لما رأى السدَّ مَنيعاً حصيناً هتف مِنْ قَرَارة نفسه قائلاً: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ[3] وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾[4].

---

(١) سورة: الكهف، الآية: ٩٥.
(٢) ظهر على الحائط: علاه.
(٣) دكاء: مدكوكاً مبسوطاً.
(٤) سورة: الكهف، الآية: ٩٨.